النَّصِيحَة

المشترك الإنساني ومعيار الأفضلية من خلال سورة الحجرات الآية 13

بن سالم باهشام
أستاذ العلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

المعين
على تدبر كتاب الله المبين
الآية 13 من سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

مقدمة

في إطار تدارسنا للآية 13 من سورة الحجرات، سنقسم موضوعنا إلى قسمين وخاتمة: القسم الأول سنتعرف فيه على سورة الحجرات التي وردت فيها آية التدارس، ويتضمن خمسة محاور، والقسم الثاني يتضمن عشرة محاور.

القسم الأول: التعريف بسورة الحجرات

أولا: أدب التعامل مقصد سورة الحجرات

لكل سورة من سور القرآن الكريم مقصد يعتبر هو المفتاح لتلك السورة، وأدب التعامل هو مقصد سورة الحجرات، والتعامل الراقي هو ثمرة الإيمان الصحيح، وختام سورة الحجرات فيه بيان لحقيقة الإيمان، ومن أنواع الآدب في التعامل والتي دعت إليه سورة الحجرات أربعة:

1 – أدب التعامل مع الله تعالى.

2 – أدب التعامل مع رسول الله ﷺ.

3 – أدب التعامل مع المجتمع المسلم.

4 – أدب التعامل مع المجتمع الإنساني كافة.

ثانيا: الترابط بين سورة الحجرات والسور التي قبلها

يوجد ترابط بين سورة الحجرات وسورة محمد وسورة الفتح اللتين قبلها، فقد جاءت هذه السور الثلاثة متتالية بحسب ترتيب المصحف، وأسماؤها متعلقة إما بشخص الرسول ﷺ باعتباره المصحوب كسورة (محمد) ﷺ ، قال تعالى في سورة (محمد) ﷺ: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)**،[1] أو سورة الفتح التي بعدها والمتعلقة بسيرته ﷺ والجماعة التي صحبته لتحقيق الخصلة الأولى من الخصال العشر من شعب الإيمان، والتي هي الصحبة والجماعة والتي هي الشرط الأول من شروط التربية، والتي ختمت بقوله تعالى: **(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)**[2]، فالفتح لا يكون ولا يتحقق إلا بصحبة وجماعة، وبتحقيق الإيمان الحق، ولا تستمر الصحبة والجماعة إلا بمراعاة آداب سورة الحجرات التي بتعاليمها تستمر الصحبة والجماعة؛ وتبقى متماسكة ومحفوظة، وبالإيمان الحق ختمت سورة الحجرات، الإيمان الذي يتضمن سبعا وسبعين شعبة تندرج ضمن الخصال العشر، والتي

---

[1] - [محمد: 2].

[2] - [الفتح: 29].

هي الصحبة والجماعة والذكر والصدق والبذل والعلم والعمل والسمت الحسن والتؤدة والاقتصاد والجهاد.

ثالثا: علاقة سورة الحجرات بسورة الفتح التي قبلها

ختم الله سورة الفتح ببيان وصف الرسول ﷺ وصحبه في التوراة والإنجيل، وافتتحت سورة الحجرات ببيان الآداب التي يجب أن يلتزم بها الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم أثناء مخاطبة المصحوب الرسول صلى الله عليه وسلم لتؤتي الصحبة ثمارها، فتناسب المقطعان.

رابعا: سورة الحجرات والنداءات الواردة فيها

افتتحت سورة الحجرات بالنداء للمؤمنين،(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)،واحتوت على ستة نداءات، خمسة نداءات للمؤمنين، تبين لهم آداب تعامل المؤمن مع الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومجتمعه، والنداء السادس للناس كافة، يبين الله فيه أدب تعامل المؤمن مع الناس، وبهذا تكون سورة الحجرات قد جمعت مكارم الأخلاق، ولذا أطلق عليها بعض المفسرين اسم "سورة الأخلاق والآداب"[1].

خامسا: المحاور الأساسية لسورة الحجرات

يمكن تقسيم سورة الحجرات إلى أربعة محاور:

1 – المحور الأول: أدب التعامل مع الله ورسوله ﷺ.

---

[1] - التفسير المنير 211/26.

من الآية 1 إلى الآية 5، أي من قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** إلى قوله تعالى: **(وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).**

* ألا يقضي المؤمنون في أمر قبل أن يقضي الله ورسوله ﷺ فيه.

* وجوب التأدب عند مخاطبة الرسول ﷺ، احتراما وتعظيما له، فيجب خفض الصوت عنده وعدم رفعه - حيا أو ميتا -، ولا ينادى باسمه أو بلقبه، إنما ينادى بصفة النبوة (يا نبي الله)، أو الرسالة (يا رسول الله)، وذم من يناديه من وراء حجرات نسائه.

2 – المحور الثاني: أدب التعامل مع المؤمنين

من الآية 6 إلى الآية 12، أي من قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)** إلى قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ).**

*وجوب التثبت من الأخبار.

*والحرص على الإصلاح بين المؤمنين لأنهم إخوة.

*ومقاتلة من يبغي من المؤمنين.

* واجتناب كل خلق ذميم يؤدي لتفكك المجتمع المسلم، كالسخرية واللمز والتنابز وسوء الظن والتجسس والغيبة.

المحور الثالث: أدب التعامل مع الناس

الآية 13 قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).**

الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

المحور الرابع: بيان حقيقة الإيمان

من الآية 14 إلى الآية 18، أي من قوله تعالى: **(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).** إلى قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).**

وهذا المحور يبين الفرق بين الإيمان والإسلام، ويحذر من المنّ بالإسلام، ويبين أن المنة من الله تعالى الهادي.

القسم الثاني: تدبر آية المدارسة

قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (13)**،

وردت هذه الآية في المحور الثالث من سورة الحجرات وتتعلق بأدب التعامل مع الناس.

أولا: انْتِقَالٌ مِنْ وَاجِبَاتِ الْمُعَامَلَاتِ إِلَى مَا يَجِبُ أَنْ يُرَاعِيَهُ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ.

أُعِيدَ النِّدَاءُ للناس كافة في آية المدارسة لِلِاهْتِمَامِ بِهَذَا الْغَرَضِ، إِذْ كَانَ إِعْجَابُ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِفَضَائِلِهَا، وَتَفْضِيلُ قَوْمِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ فَاشِيًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ...، وَكَانُوا يُحَقِّرُونَ بَعْضَ الْقَبَائِلِ مِثْلَ بَاهِلَةَ على سبيل المثال، إلى درجة أن أعرابيا باهليا سُئِلَ: أَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَأَنْتَ بَاهِلِيٌّ، فَأَطْرَقَ حِينًا ثُمَّ قَالَ: عَلَى شَرْطِ أَنْ لَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَنِّي بَاهِلِيٌّ. فَكَانَ ذَلِكَ يَجُرُّ إِلَى الْإِحَنِ وَالتَّقَاتُلِ، وَتَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ السُّخْرِيَةُ وَاللَّمْزُ وَالنَّبْزُ وَالظَّنُّ وَالتَّجَسُّسُ وَالِاغْتِيَابُ الْوَارِدَةُ فِيهَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ.

1 - تَأْدِيبِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اجْتِنَابِ مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَأْدِيبِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اجْتِنَابِ مَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لِاقْتِلَاعِ جُذُورِهِ الْبَاقِيَةِ فِي النُّفُوسِ بِسَبَبِ اخْتِلَاطِ طَبَقَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ سَنَةِ الْوُفُودِ، إِذْ كَثُرَ الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ.

2 - العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا كان المؤمنون زمن الرسول ﷺ قد اقتضى الأمر أن يخاطبوا بهذا الخطاب التأديبي، فنحن في هذا الزمن الذي أصبح العالم كله كقرية واحدة، في أمس الحاجة إلى التذكير بهذه الآية،للتواصل مع سائر الأجناس

البشرية، وما دمنا في مناسبة إحياء ذكرى رحيل الإمام المجدد عبد السلام ياسين رحمه الله، والذي أنار الله بصيرته فأعطى لهذا الجانب حقه من خلال ما اقترحه من مشاريع إصلاحية تغييرية للبعد الإنساني، والذي ينتصر فيه لإسعاد الإنسان وتحريره وتكريمه، وإرجاعه لآدميته، بغض النظر عن انتماءاته المذهبية واختياراته الثقافية، فإذا كان رحمه الله قد نادى بعقد ميثاق في القطر مع الفضلاء الديمقراطيين على أرضية إسلامية، للتعاون على رد المظالم إلى أهلها، والنهوض بالبلد، فقال رحمه الله في كتابه "حوار مع الفضلاء الديمقراطيين": (صياغة ميثاق، ومناقشة ميثاق، وإشراك الشعب في النقاش لتستنير الطريق، وينكشف الزّيْف، ويُعرف الحق، وتختار الأمة، وينفضح الدخيل، ويَخْزَى المنافق)[1]. فهو رحمه الله خرج من محيط القطر إلى العالم كله، ليخاطب الرجال والنساء في العالم كله من ذوي الإرادة الطيبة، والاستعداد النبيل، للتعاون على تحرير الإنسان، وتكريمه، والقضاء على الإقصاء والحقد العنصري، واحتقار خلق الله عز وجل، والعنف على الإنسان، وذلك بعقد ميثاق على ذلك، يقول رحمه الله في كتاب الإسلام والحداثة: (نمد لكم اليد، أيتها

[1] - عبد السلام ياسين، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، ط 1، السنة 1994، مطبوعات الأفق – الدار البيضاء، ص: 5- 8.

النفوس المتآخية في الإنسانية، مهما كانت اعتقاداتكم، ما دامت الرحمة الإنسانية، والمحبة لبني البشر تنعش قلوبكم وأعمالكم، إننا وسنبقى دائما على استعداد، وكلنا عزم وثقة في رحمة الله عز وجل، لمد اليد إلى الرجال والنساء ذوي الإرادة الطيبة، والاستعداد النبيل، سنبقى كذلك حتى نعقد ميثاق عدم الاعتداء على الإنسان، وعلى كرامة الإنسان، ميثاق رفق شامل بالإنسان وبأمن الإنسان، ميثاق رفق فعال ونشيط وباذل، إننا كذلك حتى نقضي على الإقصاء والحقد العنصري، واحتقار خلق الله عز وجل، والعنف على الإنسان والوسط الحيوي للإنسان)[1].

3 - التعاون مع ذوي المروءات في العالم لمناهضة العنصرية من الهدي النبوي.

استمد الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله أسلوب الرفق والسلمية والرحمة من المنهاج النبوي لسيدنا رسول الله ﷺ،قدوة الرحمة والرفق، الذي ناصر المظلوم قبل البعثة في حرب الفجار والفضول مع ذوي المروءة زمن الجاهلية الجهلاء، وأكد على ذلك بعد البعثة النبوية، وحتى نكون على بينة من أمرنا نورد أحداث وملابسات حرب الفجار والفضول.

[1] - عبد السلام ياسين، الإسلام والحداثة، دار الآفاق، الدار البيضاء، ط 1، 1421هـ/2000م، ص 21.

أ - قصة حرب الفجار

يوم الفِجَار هو أحد أشهر أيام العرب (حروبها) في الجاهلية، وقد سُمِّيت بحرب الفجار لأنَّ العرب قد فَجَرُوا في القتل؛ أي أسرفوا فيه، واستحلُّوا الحرمات، ويُقال -أيضًا- لأنَّ الحرب وقعت في الأشهر الحرم، وهو ما كان محرَّمًا عند العرب القتال فيها. ويُقال: إنَّها وقعت بعد عام الفيل بعشرين عامًا، ويقال: بعد وفاة عبد المطلب باثنتي عشرة سنة، وقد وقعت في أربع جولات؛ فالفِجَار الأول كان بين كنانة وهوازن، والثاني بين قريش وكنانة، والثالث بين كنانة وبني نضر بن معاوية ولم يكن فيه قتال كبير، والأخير بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن، وكان بين هذا الأخير ومبعث النبي ﷺ خمس وعشرون سنة تقريبًا، وقد شهد النبيُّ ﷺ الفجار الأخير.

ب - سبب حرب الفجار

كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة يبعث كلَّ عامٍ لطيمةً له لسوق عكاظ، أي قافلة من الإبل محملة بالحرير والطيب والمسك للتجارة، وبينما هو في مجلسه ذات يوم، وكان في مجلسه رجلين بارزين، أحدهما هو البراض بن قيس بن رافع الكناني، وقد كان رجلًا خليعًا فاتكًا قد خلعه قومه، أمَّا الثاني فهو عروة بن عتبة بن جعفر، المعروف بالرحَّالة من قبيلة قيس، وقد سُمِّي بالرحال، لكثرة ترحاله مع الملوك.

قال النعمان: من يُجيز لطيمتي هذه حتى يُبْلِغَها عكاظ، أي يحميها من قطاع الطرق؟

- فردَّ عليه البراض: أنا أُجيزها على كنانة.

- فقال النعمان: أريد من يُجيزها على كنانة وقيس.

- فقال عروة: ويحك أكلب خليع يُجيزها لك - يقصد البراض- أنا أُجيزها لك على أهل الشيخ والقيصوم، وهذا مثلًا يُضرب يَقْصُد به أنَّه يحميها من كلِّ العرب. وساق عروة بالإبل، وانطلق إلى سوق عكاظ، فتبعه البراض، وفي غفلةٍ من عروة، انقضَّ عليه البراض وقتله بالقرب من عكاظ، وساق البراض الإبل إلى عكاظ.

ج - أحداث حرب الفجار

كانت كلُّ القبائل العربيَّة تجتمع في سوق عكاظ لتبادل المنفعة، فلمَّا قتل البراضُ عروةَ، بعث رجلًا من بني أسد بن خزيمة إلى كنانة في سوق عكاظ ليُخبرهم أنَّ البراض قد قتل عروة الرحَّال، ويُحذِّرهم من قبيلة قيس.

فلمَّا وصلت أنباء قتل عروة إلى عكاظ، انطلقت كنانة إلى مكة لتحتمي داخل الحرم، فتبعتها قيس، وكان القتال في الحرم معظَّمًا عند العرب حتى في الجاهلية، فتواعد القبيلتان أن يقتتلوا، وقالت قيس: إنَّا لا نترك دم عروة وموعدنا عكاظ في العام المقبل، ويُقال إنَّ القتال وقع بينهم في الأشهر الحرم، وهذا من أسباب تسميتها بحرب الفجار، وقد دام القتال بينهم

خمس أو ست سنوات. وكانت الغلبة في الجولة الأولى لقبيلة قيس، ثم استنجدت كنانة بقريش، فكانت الغلبة لكنانة وقريش، وظلَّت الحرب بينهم حتى تدخَّل أحد الشباب القرشي وهو عروة بن ربيعة، فأتاهم ذات يوم وهم يقتتلون وقال لهم: على ما تقتتلون؟!

- فالتفتوا إليه وقالوا: ماذا تريد؟

- فقال عروة: أُريد صلحًا.

- قالوا: وما الصلح؟

- قال عروة: نفتدي قتلاكم، (أي يدفعوا لهم الدية) ونعفو عن قتلانا.

فاصطلحوا على أن يعدُّوا القتلى من الجانبين، فعدُّوا القتلى فوجدوا أنَّ قتلى قيس يزيدون عن قتلى قريش وكنانة بعشرين رجلًا، فترك حرب بن أميَّة ابنه أبا سفيان رهينة، كما ترك بعض السادات أبناءهم حتى دفعوا الدية، وبهذا انتهت الحرب ووضعت أوزارها.

د - مشاركة الرسول ﷺ في الحرب

يذكر ابن إسحاق أنَّ النبيَّ ﷺ قد حضر حرب الفجار، ولكن كانت مشاركته ﷺ محدودة فلم يُحارب، ولكنَّ أعمام الرسول ﷺ الزبير بن عبد المطلب والعباس وحمزة ﭫ قد شاركوا في تلك الحرب على رأس قبيلة قريش.

فاصطحبوا سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام لينبل معهم؛ فقد روي عن رسول الله ﷺ: **«كنت أنبل على أعمامي؛ أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها»**. ويُقال: إنَّه ﷺ كان بين الرابعة عشر والعشرين من عمره. وبذلك اكتسب عليه الصلاة والسلام الجرأة والشجاعة والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كانت كثيرًا ما تشبه حروب العرب، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم .

وقد اختلف العلماء في صحة مشاركة النبي ﷺ في حرب الفجار؛ فمنهم من أثبتها كابن إسحاق ونقلها عنه الذهبي وابن كثير رحمهم الله، وكذلك رواها ابن سعد وغيرهم، ومنهم من ضعَّفها .

وكانت حرب الفجار لقريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم، ومكانة أرض الحرم، وقد نفى البعض مشاركة النبي ﷺ فيها، وعلى قول من قال بمشاركة النبي ﷺ في هذه الحرب قبل بعثته، فقد كان دوره فيها كما روي عنه: **(كنت أنبل على أعمامي)** أي: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، حماية لهم ورحمة بهم، بموجب الرحم الواصلة، لا بموجب الحرب التي أحلت فيها الحرمات والأشهر الحرم. قال السهيلي: "ولم يقاتل رسول الله ﷺ مع أعمامه، وكان ينبل عليهم (يرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها)..

لأنها كانت حرب فجار، وكانوا أيضاً كلهم كفاراً، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا".

هـ - حلف الفضول،

حلف الفضول اتفاقٌ وقع في مكة المكرمة قبل البعثة النبوية، بين عشائر مهمة من قريش، وقد شهِده الرسول عليه الصلاة والسلام لما اشتمل عليه من خير وعدل،والمقصود بالحلف العهد الذي يكون بين القوم، وسمي هذا الحلف بالفضول لأن ثلاثة ممن عقدوه يسمون بالفضل.

و- حلف الفضول: الأسباب والبنود

جاء في الروض الأنف للسهيلي أنه كان حلف الفضول في شهر ذي القَعدة، وسببه أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه، فلجأ إلى زعماء من قريش، فلم يُعينوه لمكانة العاص فيهم، لكن بعض أشرافهم أنكروا عليهم ذلك، وتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرَد إليه حقُّه، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه، وأبرموا هذا الحلف الذي سُمي بحلف الفضول[1]. وأهم البنود التي تضمنها هذا الحلف:

- نصرة المظلوم واسترجاع حقه.
- دفع الظلم والعدوان.

---

[1] - [الروض الأنف للسهيلي. ج 2 ص: 63].

• إرجاع الحقوق إلى أصحابها.

• حماية البيت العتيق.

ترسيخ قيم التعاون والعدل والتضامن والنُّصرة

ز- القيم المستفادة من حلف الفضول

كانت حياة الجاهلية حافلة بصور الظلم والغدر والجور، إلا أنها لم تخل من ومضات إنسانية راقية جُسدت فيها بعض القيم النبيلة والأخلاق الرفيعة. وأوضح صور ذلك حلف الفضول، وما تضمنه من قيم الحق والعدل والتعاون ونصرة المظلوم وأداء الأمانة. وهي قيم دعا إليها الإسلام، قال تعالى في سورة المائدة: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)**[1]. وبعث نبيه ﷺ لإتمامها وترسيخها، قال عليه الصلاة والسلام: **(إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق)**[2].

وهذه القيم يدعو إليها الإسلام في جميع الحالات والمواقف، باعتبارها قيما ثابتة يجوز التمييز فيها بين القريب والبعيد. قال تعالى في سورة النساء: **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)**[3].

---

[1] - المائدة: 8.

[2] - أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح **على شرط مسلم**.

[3] - النساء: 58.

وفي الحديث الصحيح: **(انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا؛ فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قال: تردَعُهُ عنَ الظُّلْمِ، فذَلِكَ نَصْرُك إيّاهُ)**[1]. كما أنها قيم إسلامية لا تتأثر بسلوكات الآخرين المجانبين للصواب، قال تعالى: في سورة النساء: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)**[2]. إن ما تضمنه حلف الفضول من قيم إقامة العدل، ودرء الظلم، ونصرة المظلوم، والتعاون على الخير؛ جعل الرسول الله ﷺ يؤكد على أهميته، ويظهر اعتزازه بالمشاركة فيه بقوله: **(قَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ)**[3].

إن ما يمكن استفادته من دروس وعبر من حلف الفضول هو: أن يتعاون الجميع من أجل مبادئ إنسانية عليا كمحاربة الظلم وضرورة نصرة المظلوم، وحفظ الحقوق وصون الحريات ونشر قيم العدل والكرامة والحرية، وقيم الأخوة الرحمة والتآزر... هذه القيم والمبادئ هي التي يجب أن يتفق عليها كل الفضلاء داخل القطر وخارجه وفي العالم كله، لهذا

---

1 - [رواه البخاري: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما].

2 - [النساء: 135]

3 - [سيرة ابن هشام: ج 1 ص:133].

ينبغي أن تلتحم هذه القوى من أجل تشكيل جبهة مقاومة للفساد والاستبداد.

ح - الاهتداء والاقتداء.

- تعلمت من حلف الفضول:
  - الانفتاح على الناس ومشاكلهم
  - التعايش مع المخالف والتعاون معه على الحق والخير
  - نصرة الضعيف والمظلوم حتى يسترد حقه
  - المبادرة إلى الأعمال النافعة سعيا إلى إسعاد الناس
  - مشاركة الشباب في اتخاذ القرار وتحمل المسؤولية

4 - التعاون على مناهضة الظلم لإيجاد الأرضية لإسماع بلاغ القرآن

إن إسماع صوت الإسلام لن يجد آذانا صاغية وسط العنف والميز العنصري والإقصاء والظلم، لهذا لابد من دخول البيوت من أبوابها وذلك بمد يد التعاون مع أصحاب النيات الصادقة في العالم كله، يقول الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله في كتابه حوار مع الفضلاء الديمقراطيين: "ذلك أننا لنا دعوة نريد أن نبلغها للعالمين. وهي دعوة رفق لا عنف،

وصدق لا نفاق، وترغيب لا ترهيب، واختيار لا إكراه. وأفضل مناخ لتبليغ رسالتنا هو السلام في العالم والتواصل والتعارف والرحمة "[1].

ويضيف في موضع آخر: "الكراهية تولد الخوف، والخوف يولد الحرب الأهلية، والحرب الإقليمية، والحرب العالمية، فدعوتنا إلى الله؛ دعوة محبة، أي دعوة أمن وسلام داخل مجتمعاتنا الإسلامية وعلى العالم"[2].

ثانيا: الحكمة من تصدير الآية بالنداء للناس

جاء النداء في هذه الآية بِعُنْوَانِ (النَّاسُ) دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، رَعْيًا لِلْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ هَذَا الْعُنْوَانِ وَبَيْنَ مَا صُدِّرَ بِهِ الْغَرَضُ مِنَ التَّذْكِيرِ بِأَنَّ أَصْلَهُمْ وَاحِدٌ، أَيْ أَنَّهُمْ فِي الْخِلْقَةِ سَوَاءٌ، لِيُتَوَسَّلَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ التَّفَاضُلَ وَالتَّفَاخُرَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْفَضَائِلِ، وَإِلَى أَنَّ التَّفَاضُلَ فِي الْإِسْلَامِ بِزِيَادَةِ التَّقْوَى، لهذا قال تعالى:(**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى)**.

وَالْمُرَادُ بِالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى: آدَمُ وَحَوَّاءُ أَبَوَا الْبَشَرِ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ تعالى: **(وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا)**[3]. وَيُؤَيِّدُ هَذَا ما جاء في صحيح الجامع بسند حسن قَول النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه أبو هريرة ﷺ: **(أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ)**[4].

---

[1] - عبد السلام ياسين، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، ط 1، السنة 1994، مطبوعات الأفق – الدار البيضاء، ص 214.

[2] - عبد السلام ياسين، مجلة الجماعة، العدد 2، السنة: 1979، ص 49.

[3] - [التحرير والتنوير (26/ 258)].

[4] - صحيح الجامع بسند حسن، ح1787.

وَالمقصود بالشُّعُوبُ والقبائل: الشُّعُوبُ: جَمْعُ شَعْبٍ بِفَتْحِ الشِّينِ وَهُوَ مَجْمَعُ الْقَبَائِلِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى جَدٍّ وَاحِدٍ مِنْ أُمَّةٍ مَخْصُوصَةٍ، فَالْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ، فَمُضَرُ، وَرَبِيعَةُ، وَأَنْمَارٌ، وَإِيَادٌ شَعوبٌ، وَتَجْمَعُهَا الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُسْتَعْرِبَةُ، وَهِيَ عَدْنَانُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَحِمْيَرُ وَسَبَأٌ، وَالْأَزْدُ شُعُوبٌ مِنْ أُمَّةِ قَحْطَانَ. وَكِنَانَةُ وَقَيْسٌ وَتَمِيمٌ قَبَائِلُ مِنْ شَعْبِ مُضَرَ. وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَبِيلَتَانِ مِنْ شَعْبِ الْأَزْدِ. وَتَحْتَ الْقَبِيلَةِ الْعِمَارَةُ مِثْلُ قُرَيْشٍ مِنْ كِنَانَةَ، وَتَحْتَ الْعِمَارَةِ الْبَطْنُ مِثْلُ قُصَيٍّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَتَحْتَ الْبَطْنِ الْفَخِذُ مِثْلَ هَاشِمٍ مِنْ قُصَيٍّ، وَتَحْتَ الْفَخِذِ الْفَصِيلَةُ مِثْلُ أَبِي طَالِبٍ وَالْعَبَّاسِ وَأَبِي سُفْيَانَ. وَاقْتَصَرَتِ الآية عَلَى ذِكْرِ الشُّعُوب وَالْقَبَائِلِ لِأَنَّ مَا تَحْتَهَا دَاخِلٌ بِطْرِيقِ لَحْنِ الْخِطَابِ .وَتَجَاوَزَ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِ الْأُمَمِ جَرْيًا عَلَى الْمُتَدَاوَلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَقْسِيمِ طَبَقَاتِ الْأَنْسَابِ إِذْ لَا يُدْرِكُونَ إِلَّا أَنْسَابَهُمْ.

ثالثا: تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل سنة كونية

هَذَا التَّقْسِيمُ البشري إلى شعوب وقبائل هو من إلهام اللَّهُ للبشرية بقوله تعالى: **(وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا)**. فهو سبحانه الجاعل هذا النظام المحكم لِرَبْطِ أَوَاصِرِهِمْ دُونَ مَشَقَّةٍ وَلَا تَعَذُّرٍ، فَإِنَّ تَسْهِيلَ حُصُولِ الْعَمَلِ بَيْنَ عَدَدٍ وَاسِعِ الِانْتِشَارِ، يَكُونُ بِتَجْزِئَةِ تَحْصِيلِهِ بَيْنَ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ، ثُمَّ بِبَثِّ عَمَلِهِ بَيْنَ طَوَائِفَ مِنْ ذَلِكَ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ، ثُمَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَمَاعَاتٍ

أَكْثَرَ. وَهَكَذَا حَتَّى يَعُمَّ أُمَّةً أَوْ يَعُمَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ، وَمَا انْتَشَرَتِ الْحَضَارَاتُ الْمُمَاثِلَةُ بَيْنَ الْبَشَرِ إِلَّا بِهَذَا النَّامُوسِ الْحَكِيمِ.

رابعا: العلة من جَعْلِ اللَّهِ البشر شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

جُعِلَتْ عِلَّةُ جَعْلِ اللَّهِ البشر شُعُوبًا وَقَبَائِلَ. وَحِكْمَتُهُ مِنْ هَذَا الْجَعْلِ أَنْ يَتَعَارَفَ النَّاسُ، أَيْ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَالتَّعَارُفُ يَحْصُلُ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، مُتَدَرِّجًا إِلَى الْأَعْلَى، فَالْعَائِلَةُ الْوَاحِدَةُ مُتَعَارِفُونَ، وَالْعَشِيرَةُ مُتَعَارِفُونَ مِنْ عَائِلَاتٍ، إِذْ لَا يَخْلُونَ عَنِ انْتِسَابٍ وَمُصَاهَرَةٍ، وَهَكَذَا تَتَعَارَفُ الْعَشَائِرُ مَعَ الْبُطُونِ، وَالْبُطُونُ مَعَ الْعَمَائِرِ، وَالْعَمَائِرُ مَعَ الْقَبَائِلِ، وَالْقَبَائِلُ مَعَ الشُّعُوبِ، لِأَنَّ كُلَّ دَرَجَةٍ تَأْتَلِفُ مِنْ مَجْمُوعِ الدَّرَجَاتِ الَّتِي دُونَهَا[1].

خامسا: الانحراف عن القصد من اخْتِلَافَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ

الْمَقْصُودُ من التذكير بهذه الآية، أَنَّ البشر حَرَّفوا الْفِطْرَةَ، وَقَلَبوا الْوَضْعَ، فَجَعَلوا اخْتِلَافَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ بِسَبَبِ تَنَاكُرٍ وَتَطَاحُنٍ وَعُدْوَانٍ. وَأَقْوَالُ العرب فِي هَذَا لَا تُحْصَرُ، عَدَا مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ التَّفَاخُرِ وَالتَّطَاوُلِ وَالسُّخْرِيَةِ وَاللَّمْزِ وَالنَّبْزِ وَسُوءِ الظَّنِّ وَالْغِيبَةِ.

سادسا: الإسلام وجبر الصدع

جاء الإسلام وجَبَرَ اللَّهُ به صَدْعَ الْعَرَبِ، كما جاء لجبر صدع البشرية جمعاء، قَالَ تَعَالَى في سورة آل عمران، وهو يمن على العرب بإرجاعهم إلى الفطرة: (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

[1] - [التحرير والتنوير (26/ 259)].

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا)، فَرَدَّهُمْ إِلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ تَصَارِيفُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ تَرْجِعُ بِالنَّاسِ إِلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ.

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا إِخْوَةً، وَأَنْ يُصْلِحُوا بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُتَقَاتِلَةِ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَثْلِمُ الْأُخُوَّةَ، وَمَا يَغِينُ عَلَى نُورِهَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَاللَّمْزِ وَالتَّنَابُزِ وَالظَّنِّ السُّوءِ وَالتَّجَسُّسِ وَالْغِيبَةِ، ذَكَّرَهُمْ بِأَصْلِ الْأُخُوَّةِ فِي الأَنْسَابِ الَّتِي أَكَّدَتْهَا أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَوَحْدَةُ الِاعْتِقَادِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ التَّذْكِيرُ عَوْنًا عَلَى تَبَصُّرِهِمْ فِي حَالِهِمْ[1].

وَلَمَّا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ وَاللَّمْزُ وَالتَّنَابُزُ مِمَّا يُحْمَلُ عَلَيْهِ التَّنَافُسُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْقَبَائِلِ، جَمَعَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ الْحَكِيمَةِ من هذه الآية: والَّتِي تَدُلُّ عَلَى النِّدَاءِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى هَذَا التَّشْعِيبِ الَّذِي وَضَعَتْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي فَاسِدِ لَوَازِمِهِ، وَأَهْمَلُوا صَالِحَ مَا جُعِلَ لَهُ بِقَوْلِهِ سبحانه: **(لِتَعارَفُوا)** ثُمَّ أَتْبَعَهُ سبحانه بِقَوْلِهِ: **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ)** أَيْ فَإِنْ تَنَافَسْتُمْ فَتَنَافَسُوا فِي التَّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سورة المطففين: (وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ)[2].

سابعا: التقوى ميزان التفاضل بين الناس

1 - مقدمة عن التقوى

[1] - [التحرير والتنوير (26/ 260)].

[2] - [المطففين: 26].

*على التقوى مدار الدين كله، فلا تقبل الأعمال إلا بالتقوى، قال تعالى في سورة المائدة: **(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)**[1].

*وبالتقوى تقدر الأحكام الدينية في النفس وتعظم، قال تعالى في سورة الحج: **(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)**[2].

*والتقوى هي وصية الله تعالى لكل المكلفين إلى قيام الساعة، قال تعالى في سورة النساء: **(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ)**[3].

*وبالتقوى يصلح الله كل أعمال الفرد، قال تعالى في سورة الأحزاب: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)**[4].

*وبالتقوى نُؤمّن على حياة أبنائنا بحضورنا وحتى عند وفاتنا، قال تعالى في سورة النساء: **(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)**[5].

*وبالتقوى تتحقق الولاية، قال تعالى في سورة يونس: **(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)**[6].

---

1 - [المائدة: 27].

2 - [الحج: 32].

3 – [النساء: 131]

4 – [الأحزاب: 70، 71].

5 – [النساء: 9]

6 – [يونس: 62، 63].

*والتقوى هي ميزان التفاضل بين الناس، قال تعالى في سورة الحجرات: **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)**[1].

*والتقوى هي الزاد الوحيد للآخرة، قال تعالى في سورة البقرة: **(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)**[2].

*والتقوى هي سفينة النجاة يوم القيامة، وهي التزام طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهي سلوك طريق النبي محمد ﷺ،وتكون بالتزام ما فرض الله واجتناب ما حرم الله سبحانه وتعالى.

إن التقوى هي أداء الواجبات والفرائض واجتناب المحرمات، فمن التزم بها كان من أحباب الله وأحباب النبي ﷺ، جاء في صَحيحِ ابنِ حِبّانَ مِن حَديثِ جَابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصَاريّ ﷺ أنّه قالَ : قالَ رسول الله ﷺ : **(إنَّ أَولى النّاسِ بي، المتّقُونَ مَن كانُوا وحَيثُ كانُوا)**، فللرسولُ ﷺ يُبيّنُ لنَا أنّ أفضَلَ النّاسِ عِندَه، وأَقربَ النّاسِ إلَيهِ، المتّقُون، وهم المؤمنونَ الذينَ يَتّقُونَ اللّهَ، فيؤدُّونَ الواجِباتِ ويجتَنِبُونَ المحرّمَاتِ، مِنْ أَيّ قَبائلِ البَشَرِ كَانُوا، وحَيثُما كانُوا، فالمتّقِي قَريبٌ من الرسول ﷺ. والله سبحانه وتعالى يكرم عباده المتقين عند الحشر وفي مواقف القيامة، فهم لا يخافون عندما يخاف الناس، ولا يحزنون عندما يحزن الناس، فهم يحشرون وهم

---

1 - [الحجرات: 13].

2 - [البقرة: 197].

لابسون راكبون طاعمون، يأتيهم رزقهم من خالقهم ومالكهم، يقول الله عز وجل في سورة مريم: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾[1]،

* وبالتقوى ينجو الإنسان من الشدائد، وتزول الشبهات، ويجعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، وييسر له الرزق من حيث لا يحتسب، يقول سبحانه في سورة الطلاق: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[3].

*والتقوى هي الغاية من تشريع الأحكام الشرعية من فعل الواجبات وترك المحرمات، قال تعالى في سورة البقرة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[4]، وقال سبحانه في نفس السورة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)[5]، فصيام شهر رمضان هو مدرسة للتحلي بالتقوى، إذ أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نتقيه شهرا ليكتبنا من المتقين دهرا، وقال سبحانه في سورة الأنعام: (وَأَنَّ هَذَا

---

1 - [مريم: 85].

2 - [الطلاق: 2، 3].

3 - [الطلاق: 4].

4 - [البقرة: 21].

5 - [البقرة: 183، 184]

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1] .

2 - تعريف التقوى لغةً واصطلاحًا

***التقوى لغةً:** الوقاية، ومصدره: وقاء، بمعنى حِفْظ الشيء عما يؤذيه، ومنه: قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾[2].

ومعنى قولك: اتَّقِ الله: أي: اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، ومنه: ما رواه البخاري، ومسلم عن عدي بن حاتم ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: **(اتَّقوا النار ولو بشق تمرة)**[3]، ومعنى قولك: اتقى فلان كذا؛ أي: جعله وقاية.

وأجدر ما يُتَّقَى به من العذاب يوم القيامة، الوجه؛ قال الله تعالى في سورة الزمر[4]. ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[5].

***التقوى اصطلاحًا:** للتقوى أكثر من عشرةِ تعاريف، منها ما اقتُصِرَ فيه على تعريفِ جانبٍ دون آخر، ومن أحسن التعريفات

- تعريف الإمام علي بن أبي طالب ﷺ للتقوى: (التقوى هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل).

---

[1] - [الأنعام: 153]

[2] - [الدخان: 56].

[3] - رواه البخاري (1413)، ومسلم (2347) عن عدي بن حاتم.

[4] - [الزمر: 24]

[5] - ملخصًا من "تفسير الطبري" (8 / 665)، و"تفسير ابن كثير" (4 / 243)، و"تفسير الألوسي" (12 /374)، و"بصائر ذوي التمييز" (5 /258)، وغيرها.

- تعريف طلق بن حبيب للتقوى: روى ابن أبي شيبة في "مصنفه بسند صحيح ، أن طلق بن حبيب قال: (إذا وقعت الفتن، فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: هي أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله رجاءَ رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله على نورٍ من الله مخافةَ عذاب الله)[1].

أي أن التقوى هي العمل بطاعة الله: قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾[2]، وهذا في أكثر من عشرة مواضع من القرآن الكريم. ومثله: قول من عرَّفها بالاحتراز بطاعة الله عن عقوبته.

وقوله: (على نورٍ من الله)؛ أي: على بصيرة؛ قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**﴾[3]، ويقول تعالى في سورة الطلاق: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**﴾[4]، والفرقان والمخرج عامَّان.

وقوله: (رجاء رحمة الله): قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾[5].

وقوله: (والتقوى ترك معاصي الله): قال تبارك وتعالى في سورة البقرة:

---

[1] - رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه" برقم (30993)، وهو أثر صحيح.

[2] - [آل عمران: 50].

[3] - [الأنفال: 29].

[4] - [الطلاق: 2].

[5] - [الأعراف: 156].

﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الدنيا و اتقوا النساء»[2]. وقال ﷺ: «من اتقى الشبهات؛ فقد استبراء لدينه وعرضه»[3].

ويدخل في هذا تعريف من قال: (التقوى هي اجتناب كل ما فيه ضرر)، وكذا تعريف من قال: (التقوى هي المحافظة على آداب الشريعة، ومجانبة كل ما يُبعد المرء عن الله تعالى).

وقوله: (على نورٍ من الله، مخافة عذاب الله): قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[4]،وقال ﷺ: «اتقوا النارولو بشق تمرة»[5].

– **تعريف الجرجاني للتقوى:** قال الجرجاني: في "تعريفاته": (التقوى في الطاعة يراد بها الإخلاص)[6].

– **تعريف السوطي للتقوى:** ذكرَ السيوطي في "الدر المنثور": أن رجلًا سأل أبا هريرة ﷺ عن التقوى؟ فقال له أبو هريرة ﷺ: (هل أخذت طريقًا ذات شوكٍ؟ قال: نعم، قال: فكيف كنت تصنع إذا رأيت الشوك؟ قال:

---

1 - [البقرة: 223].

2 - رواه مسلم (6948) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

3 - رواه البخاري برقم (52)، ومسلم (4094)، عن النعمان بن بشير.

4 - [المائدة: 2].

5 - عن عدي؛ رواه البخاري برقم (1413)، ومسلم (1016).

6 - الجرجاني، "تعريفاته" (ص65):

أَعْدِلُ عنها، أو جاوزتها، أو قَصُرت عنها، قال: ذاك التقوى)[1]؛ أي: فكذلك التقوى، وبنحوه عن عمر بن الخطاب أنه سأل أبي بن كعب ﷺ، فقال له كما قال أبا هريرة ﷺ. وفي هذا يقول عبد الله بن المعتز؛ كما في "تفسير ابن كثير":

خل الذنوب صغـــيرها *** وكبيرها ذاك التـــقى
واصنع كماشٍ فوق أرض *** الشو ك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغـــــــيرة *** إن الجبال من الحصى[2].

وفي "شرح السنة" للبغوي: عن عمر بن عبد العزيز: أنه قال: (التقي ملجم، لا يفعل كل ما يريد)[3].

3 - علامات التقوى:

- قال عبد الله بن عمر ﷺ: (التقوى ألاّ ترى نفسك خيرًا من أحد)[4].

- قال مالك بن أنس رحمه الله: (بلغني أن رجلًا من الفقهاء كتب إلى ابن الزبير يقول: ألا إن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويَعرفونها من أنفسهم: من رَضِيَ بالقضاء، وصَبَرَ على البلاء، وشَكَرَ على النَّعماء، وصَدَقَ في اللسان، ووفَّى بالوعد والعهد، وتلا أحكام القرآن، وإنما الإمام

---

[1] - السيوطي، "الدر المنثور" (1/ 61).
[2] - "تفسير ابن كثير" (1/ 53).
[3] - "شرح السنة" للبغوي: (14/ 341)،
[4] - البغوي في "تفسيره" (1/ 60).

سوقٌ من الأسواق، فإن كان من أهل الحق حَمَل إليه أهل الحق حقَّهم، وإن كان من أهل الباطل حَمَل إليه أهل الباطل باطلهم)[1].

- قال الحسن البصري رحمه الله: (يا بن آدم، عملك عملَك، فإنما هو لحمك ودمك، فانظر على أي حال تلقى عملك، إن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها: صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخُيلاء، وبذل المعروف، وقلَّة المباهاة للناس، وحسن الخلق)[2].

4 - درجات التقوى

أعلى درجات التقوى: التقوى درجات أعلاها فعل الواجبات والمستحبات، وترك فضول المباحات، وتجنب المحرمات والشبهات والمكروهات، والورع عما تخشى عذابه في الآخرة.

أدنى درجات التقوى: فعل الواجبات وترك المحرمات، مع ترك المستحبات وفعل المكروهات، والتوسع في فضول المباحات، وقلة الورع.

5 - سبب التقوى وفوائدها لعباد الله

يقول قال الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: (أُوصيكُم. عبادَ الله. بتقوى الله؛ فإنّ تقوى اللهِ مَنْجاةٌ مِن كلِّ هَلَكة، وعِصمةٌ مِن كلِّ ضَلالة. وبتقوى الله

---

1 - ابن الأثير في "جامع الأصول" (11/ 703. 704).

2 – رواه أبو نعيم في "الحلية " (2/ 143).

فاز الفائزون، وظَفَر الراغبون، ونجا الهاربون، وأدرك الطالبون، وبتركِها خَسِرَ المُبْطِلون، ﴿إنّ اللهَ مَعَ الَّذينَ آتَّقَوا والَّذين هُم مُحسِنون﴾[1].

6 - التقوى وما بعد الموت

يقول كميل بن زياد رحمه الله: (خَرَجْتُ مَعَ علي بن أبي طالب ﷺ ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْجَبَّانِ، الْتَفَتَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْقُبُورِ! يَا أَهْلَ الْبَلَاءِ! يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ! مَا الْخَبَرُ عِنْدَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخَبَرَ عِنْدَنَا: قَدْ قُسِّمَتِ الْأَمْوَالُ، وَأُوتِمَتِ الْأَوْلَادُ ، وَاسْتُبْدِلَ بِالْأَزْوَاجِ ، فَهَذَا الْخَبَرُ عِنْدَنَا ، فَمَا الْخَبَرُ عِنْدَكُمْ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا كُمَيْلُ ! لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْجَوَابِ لَقَالُوا :﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[2]، ثُمَّ بَكَى وَقَالَ لِي :يَا كُمَيْلُ ! الْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَلِ ، وَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ).

7 - التقوى في سورة الحجرات

قال تعالى في سورة الحجرات: (إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى)، هذا خبر مُسْتَعْمَلٌ كِنَايَةً عَنِ الْمُسَاوَاةِ فِي أَصْلِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيّ، لِيُتَوَصَّلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى إِرَادَةِ اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْمَزَايَا الَّتِي تَرْفَعُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، وَالْمَعْنَى الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ مَضْمُونُ جُمْلَةِ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ) فَتِلْكَ الْجُمْلَةُ تَتَنَزَّلُ مِنْ جُمْلَةِ (إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى) مَنْزِلَةَ الْمَقْصِدِ مِنَ الْمُقَدِّمَةِ، وَالنَّتِيجَةِ مِنَ الْقِيَاسِ، وَلِذَلِكَ فُصِّلَتْ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَيَانِ.

---

[1] - سورة النحل: 128.

[2] - سورة البقرة 197

وَأَمَّا جُمْلَةُ (وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا) فَهِيَ جملة اعتراضية بَيْنَ جملة (إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى) وجملة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ). وَالْمَقْصُودُ مِنِ اعْتِرَاضِهَا: إِدْمَاجُ تَأْدِيبٍ آخَرَ، مِنْ وَاجِبِ بَثِّ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاصُلِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُرَادُ اللَّهِ مِنْهُمْ. وَمِنْ مَعْنَى الْآيَةِ مَا خَطَبَ بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ إِذْ قَالَ فيما رواه أحمد في المسند بسند صحيح: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى)[1].

ثامنا: التقوى وسيلة إلى الكمال النفساني

1 - أنواع الكمالات البشرية:

الكمالات البشرية كما صنف ذلك العارفون بالله ثلاثة، وهناك كمالات أخرى لم نذكرها، لكونها كلها تدخل في واحدة من هذه الكمالات الثلاث: كمالات نفسية، وكمالات بدنية، وكمالات خارجية:

أ – كمالات نفسية: كالعلم، والعفة، والشجاعة، والعدالة، وهي أشرف الكمالات.

ب - كمالات بدنية: كالصحة، والقوة، والجمال، وطول العمر في ذلك مع اللذة والبهجة. وهي أوسط الكمالات.

---

[1] - [رواه أحمد(411/5) (23536)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (269/3): رجاله رجال الصحيح].

ج – كمالات خارجية: كالمال، والأهل، والعز، وكرم العشيرة، وهي أدون الكمالات.

2 - أنواع الكمالات النفسية:

والكمالات النفسية التي هي أعلى الكمالات، محصورة في أمرين:

الأمر الأول: العلم اليقيني:

ومنه معرفة الله عز وجل، والإيمان به، وهو رأس المعارف النفسية ورئيسها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى في سورة الأعلى:(**سنقرئك فلا تنسى**).

والأمر الثاني: صالح العمل:

وهو أن يكون الإنسان مستقيما في الوسط، غير مائل إلى طرف الإفراط أو التفريط، وهو رأس الأعمال الصالحة ورئيسها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى في سورة الأعلى:(**ونيسرك لليسرى**).

3 - مراتب الكمال النفسي:

وللكمال النفسي مرتبتان: مرتبة كاملة، ومرتبة أكمل.

أ - المرتبة الكاملة: أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة، ما يصير به كاملا في نفسه. فقوله تعالى:(**سنقرئك فلا تنسى**)، (**ونيسرك لليسرى**)، إشارة إلى المرتبة الأولى التي هي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها فيصبح بها الفرد صالحا.

ب - المرتبة الأكمل: أنه إذا بلغ المرتبة الكاملة، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين، ولا ريب أن ذلك فوق الكمال. فإذا نال المرتبة الأولى لم يبق

لازما، مكتفيا بصلاح نفسه، بل لابد أن يصبح متعديا بأن يصبح مصلحا، لهذا وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاتصال بإصلاح الناقصين، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق، وهو المراد من قوله تعالى: (فذكر ان نفعت الذكرى). وهي الشعبة الأخيرة من شعب الإيمان السبعة والسبعين، والتي هي الدعوة إلى الله.

4 - الكمال النفسي من خلال سورة الحجرات

إن جُمْلَة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ) مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا، وَإِنَّمَا أُخِّرَتْ فِي النَّظْمِ عَنْ جُمْلَةِ (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)، لِتَكُونَ تِلْكَ الْجُمْلَةُ السَّابِقَةُ كَالتَّوْطِئَةِ لِهَذِهِ، وَتَتَنَزَّلُ مِنْهَا مَنْزِلَةَ الْمُقَدِّمَةِ، لِأَنَّ البشر لَمَّا تَسَاوَوْا فِي أَصْلِ الْخِلْقَةِ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ، كَانَ الشَّأْنُ أَنْ لَا يَفْضُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا بِالْكَمَالِ النَّفْسَانِيِّ، وَهُوَ الْكَمَالُ الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَالَّذِي جَعَلَ التَّقْوَى وَسِيلَتَهُ، وَلِذَلِكَ نَاطَ سبحانه التَّفَاضُلَ فِي الْكَرَمِ بِقوله: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ) إِذْ لَا اعْتِدَادَ بِكَرَمٍ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ. وَالْمُرَادُ بِالْأَكْرَمِ: الْأَنْفَسُ وَالْأَشْرَفُ، وَالمراد بالْأَتْقَى: الْأَفْضَلُ فِي التَّقْوَى.

وَمِنْ مَعْنَى الْآيَةِ مَا خَطَبَ بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ إِذْ قَالَ فيما رواه أحمد في المسند بسند صحيح: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا

إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى)[1].

تاسعا: العلة من ختم الآية بصفتي علم الله وخبرته سبحانه وتعالى

إن جُمْلَة **(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)** التي ختم الله بها الآية، هي تَعْلِيلٌ لِمَضْمُونِ **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** أَيْ إِنَّمَا كَانَ أَكْرَمُكُمْ أَتْقَاكُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْكَرَامَةِ الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُ الْمَكَارِمَ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْبَطْشِ وَإِفْنَاءِ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ وَجْهٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، الْكَرَامَةُ الَّتِي هِيَ التَّقْوَى، **(خَبِيرٌ)** بِمِقْدَارِ حُظُوظِ النَّاسِ مِنَ التَّقْوَى، فَهِيَ عِنْدَهُ حُظُوظُ الْكَرَامَةِ، فَلِذَلِكَ الْأَكْرَمُ هُوَ الْأَتْقَى، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تعالى في سورة النجم: **(فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى)**[2]، أَيْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَرَاتِبِكُمْ فِي التَّقْوَى، أَيِ الَّتِي هِيَ التَّزْكِيَةُ الْحَقُّ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ من سورة الأنعام: **(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاته)**[3]. وَجُمْلَةُ **(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)** تَذْيِيلٌ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْأَمْرِ بِتَزْكِيَةِ نَوَايَاهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ وَمَا يُرِيدُونَ مِنَ التَّقْوَى، بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ ويحاسبهم عَلَيْهِ[4].

عاشرا: عدم المنافاة بين كرامة التقوى والمكارم الأخرى

---

[1] - [رواه أحمد(411/5) (23536)،وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (269/3): رجاله رجال الصحيح].

[2] - [النَّجْم: 32].

[3] - [الْأَنْعَام: 124].

[4] - [التحرير والتنوير (26/ 263)].

قَوْلهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾ لَا يُنَافِي أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ مَكَارِمُ أُخْرَى فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ التَّقْوَى، مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَثَرُ تَزْكِيَةٍ فِي النُّفُوسِ، مِثْلُ حُسْنِ التَّرْبِيَةِ، ونقاء النَّسَب، والعرافة فِي الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ، وَحُسْنِ السُّمْعَةِ فِي الْأُمَمِ، وَفِي الْفَصَائِلِ، وَفِي الْعَائِلَاتِ، وَكَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا خَلَّدَهُ التَّارِيخُ الصَّادِقُ لِلْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ، فَمَا يَتْرُكُ آثَارًا لِأَفْرَادِهَا وَخِلَالًا فِي سَلَائِلِهَا، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيما رواه عنه أبو هريرة ﷺ: (النَّاسُ معادِنٌ كمعادِنِ الذهبِ والفضةِ، خيارُهم في الجاهلِيَّةِ، خيارُهم في الإسلامِ إذا فقُهوا، والأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تعارَفَ منها ائتلَفَ، وما تناكَرَ منها اختلَفَ)[1].

فَإِنَّ فِي خلق الأبناء آثَارًا مِنْ طِبَاعِ الْآبَاءِ الْأَدْنَيْنَ أَوِ الْأَعْلَيْنَ تَكُونُ مُهَيَّئَةً نُفُوسُهُمْ لِلْكَمَالِ أَوْ ضِدِّهِ، وَأَنَّ لِلتَّهْذِيبِ وَالتَّرْبِيَةِ آثَارًا جَمَّةً فِي تَكْمِيلِ النُّفُوسِ أَوْ تَقْصِيرِهَا، وَلِلْعَوَائِدِ وَالتَّقَالِيدِ آثَارُهَا فِي الرِّفْعَةِ وَالضَّعَةِ، وَكُلُّ هَذِهِ وَسَائِلُ لِإِعْدَادِ النُّفُوسِ إِلَى الْكَمَالِ وَالزَّكَاءِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي تُخَطِّطُهُ التَّقْوَى.

الخاتمة: لا سلام ولا أمن ولا أمان إلا في ظل تعاليم الإسلام

---

[1] - أخرجه البخاري (3495، 3496)، ومسلم (2638)، وأحمد (10969) باختلاف يسير، والبزار (9374) واللفظ له.

لو طبق الناس الإسلام الذي هو الدين الحق، لرأوا كيف يصبح السلام واقعاً حقيقياً، لا خداع فيه ولا تجبر، ولا مكائد ولا دسائس، ولرأوا أن جميع مشكلات العالم تذوب من تلقاء نفسها كما يذوب الملح في الماء. لأن الحلول الإسلامية تناجي كل قلب على حدة، وتقول له: ابدأ بنفسك، ليقتدي بك الآخرون، فتصبح الدعوة جماعية في آن واحد، دون أن يتدخل أي شخص في تفكير الآخر و في نواياه.

إن من المعروف بداهة وواقعاً أن كل تجمّع على غير هدى الخالق العظيم رب العالمين لا يمكن أن يقدم الحلول المرضية لمشكلات الناس مهما كان نبوغ المجتمعين، ومهما كان إخلاصهم، ولا نذهب بعيداً فهذا مجلس الأمن، أو مقام الأمم المتحدة، أشبه ما يكون بجسم لا روح فيه؛ بل هو مقر الخدع والمؤامرات لأصحاب النفوذ والقوة، لا يهمه إلا إرضاء الدول الدائمة العضوية كما يسمونها، أصحاب السيف الفولاذي الذي يسمونه (الفيتو).

لقد صار هذا الفيتو سيفاً على رقاب الناس لا يجوز الخروج عن طاعته، ظلمه عدل، وقتله رحمة، وكلمته هي الفصل، فكيف بعد ذلك وأنى لهم أن يقدموا الحلول العادلة وهم لا يملكونها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

لقد نبهنا الإسلام إلى أن الله هو رب الكون وما فيه، وهو المدبر له، والخير إليه، والشر بتقديره عندما تتوفر أسبابه. وكل ما يقع في هذا الكون إنما هو بمشيئته وقدرته، وقد أرشدنا الله عز وجل إلى الطرق الناجحة التي تقطع دابر الشرور والظلم، فإذا لم يرد الناس تطبيقها وفضلوا تطبيق

أهوائهم، أوكلهم الله إلى أنفسهم - كما هو واقع البشر اليوم- ثم لا يبالي بهم في أي واد من أودية الدنيا هلكوا.

وحينئذ يتولاهم كبار المجرمين، ويَحُلون أنفسهم محل النبوة والألوهية، فيُشرّعون للناس بجهلهم شرائع تجرهم إلى الدمار، يقدمون السم في أطباق الذهب المزخرف، ثم تسير الحياة بالناس من ضنك إلى ضنك أشد منه، قال تعالى في سورة طه: **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)**[1]. فلا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

مكناس الثلاثاء 8 دجنبر 2020

1 - [طه:124].

الفهرس

المصادر والمراجع

1- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر - دمشق الطبعة الثانية، 1418 هـ.

2 - الدر المنثور في التفسير المأثور، الجلال السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين، سنة النشر: 1432 – 2011.

3 - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: 581هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م.

4 - السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، المحقق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، سنة النشر: 1410 – 1990، الطبعة الثالثة.

5 - المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري؛ محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهماني النيسابورى، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، أبو عبد الله، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، سنة النشر: 1422 – 2002.

6 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مجد الدين، المحقق: محمد علي النجار - عبد العليم الطحاوي الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سنة النشر: 1416 - 1996 الطبعة الثالثة.

7 - تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور؛ محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر.

8 - تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، الناشر: دار ابن حزم.

9 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، ابن جرير الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر.

10 - جامع الأصول في أحاديث الرسول ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى : 606هـ) تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون الناشر : مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان الطبعة : الأولى، مذيل بحواشي المحقق عبد القادر الأرنؤوط ، وأيضا أضيفت تعليقات أيمن صالح شعبان (ط : دار الكتب العلمية) في مواضعها من هذه الطبعةالجزء [1، 2] : 1389 هـ ، 1969 م الجزء [3 ، 4] : 1390 هـ ، 1970 م الجزء [5] : 1390 هـ ، 1971 م الجزء [6 ، 7] : 1391 هـ ، 1971 م الجزء [8 - 11] : 1392 هـ ، 1972 م الجزء

[12] (التتمة) : طبعة دار الفكر ، تحقيق بشير عيون.

11- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم، الناشر: السعادة – مصر.

12 - صحيح البخاري ، البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الناشر: دار ابن كثير - دمشق بيروت، سنة النشر: 1423 – 2002، الطبعة الأولى.

13 - صحيح مسلم، الإمام مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابورى، أبو الحسين، المحقق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، الناشر: دار طيبة، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1427 – 2006.

14 - روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي البغدادي شهاب الدين، الناشر: ادارة الطباعة المنيرية - تصوير دار إحيار التراث العربي.

15 - شرح السنة ، الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي أبو محمد، المحقق: شعيب الأرناؤوط - زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، سنة النشر: 1403 – 1983، الطبعة الثانية.

16 - عبد السلام ياسين، الإسلام والحداثة، دار الآفاق، الدار البيضاء، ط 1، 1421هـ/2000م.

17 - عبد السلام ياسين، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، ط 1، السنة 1994، مطبوعات الأفق – الدار البيضاء.

18 - عبد السلام ياسين، مجلة الجماعة، العدد 2، السنة: 1979.

19 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الهيثمي؛ علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، أبو الحسن، نور الدين، المصري القاهري، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي – القاهرة.

20 - مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام ابن حنبل؛ أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة.

21 - مصنف ابن أبي شيبة ، عبد الله بن محمد بن إبراهيم أبي شيبة العبسي أبو بكر، المحقق: أسامة بن إبراهيم بن محمد أبو محمد، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، سنة النشر: 1428 – 2008، الطبعة الأولى.

22 - معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي أبو محمد، المحقق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة، سنة النشر: 1409 هـ - 1989 م.

23- معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، المحقق: محمد صديق المنشاوي، الناشر: دار الفضيلة.